عاشوراء: فلسفة حياة

الشيخ د.محمد شقير•

هناك حقيقة تكاد تكون واضحة: جاء الدين من أجل سعادة الإنسان، وحمل معه مجموعة من القيم والمبادئ والأفكار والعقائد والأحكام... من أجل أن تعمل على تغيير حياة الإنسان نحو الأفضل، سواءً على المستوى الاجتماعي أم الاقتصادي أم السياسي، وفي جميع المجالات التي ترتبط بحياة الإنسان من قريب أو بعيد، ما يؤدي إلى فصل الهداية، أوالنَّظْم الاجتماعي وتنظيم المجتمعات.

ويحصل هذا التغيير من خلال الإقناع الذي يراود فكرالإنسان، وفعل الإرادة الذي يراود عزمه. لكن سؤالاً أساسياً يرتسم في هذه النقطة بالتحديد: إذا كان الدين يعنى بفعل التغيير، أليس جديراً أن يكون التعبير الديني (الدافع للتغيير) تعبيراً حيوياً؟ وأن تكون آلياته عملية؟ وأن يكون الفعل البشري (الحاكي عن النص الديني) في الواقع الاجتماعي والسياسي، فعلاً مُظْهِراً لتلك المعاني والقيم الدينية؟!

هنا نستطيع القول: لا شكَ أن تجلي المعاني الدينية في النص له أثره، لكن لا شك أيضاً أنه إذا تجلت تلك المعاني الدينية في السلوك البشري، فإن لها أثراً أكبر وأقوى، باعتبار أن هذا السلوك يستطيع أن يبرز أكبر قدر ممكن من تلك المعاني، وبأرقى مستوى. وعندها سيكون هذا السلوك أقوى على مستوى تأثيره، كما إنه يستطيع أن يكون أصدق تعبيراً؛ لأنه يخوض التجربة ويثبت صدقها، ليكون التعبير الديني تعبيراً فعلياً، وهو ثقيل المؤونة، مقابل التعبير القولي؛ خفيف المؤونة. بالتالي، كلّما تجلت المعاني الدينية في الواقع الاجتماعي والسلوك البشري، كلما أدّت دورها في فعل التغيير أكثر، وبشكل أقوى، مقارنة مع النص اللفظي.

عاشوراء: تجلّ للمعاني الدينية:

من هنا كانت عاشوراء أبلغ تعبير عن المعاني الدينية، حيث شكّلت دافعاً قوياً للتمسك بمعاني الشهادة، وقيم التضحية والإيثار، والدفاع عن الحقّ، والذود عن الدين، ومقارعة الفساد، وممارسة الإصلاح. فكان الحدث العاشورائي منطلقاً قوياً للتفاعل مع جميع تلك المعاني والقيم، والتماهي معها[1].

فشهادة الحسين(عليه السلام) حكت الإسلام، وأبرزت معانيه، وأظهرته في الواقع البشري، فعلاً صادقاً وسلوكاً معبراً، وعطاءً يحكي قداسة القضية وعظمة الدين.

ولقد كشفت عاشوراء أمراً آخر، لا يقل أهمية: في عصر أصبح الدين في خطر، وأصبحت رسالة الإسلام عرضة للتحريف، حيث أصبح الفساد يُمارَس باسم الدين، وتُنْتَهكُ الحرمات باسم الشريعة، فعزّ فيه النصير وغدا

• أستاذ في الحوزة العلمية ، وأستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

[1]. المطهري، مرتضى: **الملحمة الحسينية**. تعريب السيد محمد صادق الحسيني، ط2، الدار الإسلامية، بيروت، 1992م.ص95-60.

ثمن الإصلاح غالياً نادراً: فيضٌ من الدماء وبذلٌ للغالي والنفيس. أصبح واضحاً أنّه لن يقدم على هذا المشروع الإصلاحي وعلى فعل الشهادة، إلاّ من كان حريصاً على الدين، وعلى حفظ رسالة محمد (صلى الله عليه وآله) من التحريف، ومن كان يرى أن استمرار الدين أغلى من دمه، وكان مستعداً لبذل كل ما لديه من أجل ممارسة الإصلاح وفعل الهداية.

وبالأحمر القاني، أبرزت شهادة الحسين (عليه السلام) الكثير من القيم والمعاني الدينية[2]، بأروع تجلياتها وأجمل تعابيرها. وفي الوقت نفسه، أظهرت تلك الشهادة أن صاحبها هو الحامي للدين، والرائد في الإصلاح والنصير للحق، في ذلك العصر وفي ذلك الظرف، وأنه هو من يمتلك الانتماء الحقيقي والعميق لذاك الدين، وأن كل تلك القيم والمبادئ تستحق أن تُبذل من أجلها المُهج والأرواح.

كيف يحصل التغيير؟

يحتاج الدين إلى رجال ينطقون به وينطق بهم، يتجلى بهم، وتظهر بهم معانيه، يفصحون عنه بأفعالهم، وتحكيه جوارحهم، إن أقدم أقدموا وإن أحجم أحجموا، تماهوا بالدين وتماهى بهم، يُعرف بهم وبه يُعرفوا، فهم أئمته وحَمَلة العلم فيه، المعبرون عنه بحركاتهم وسكناتهم فضلاً عن شهادتهم وآلام المحن.

لذلك فإنّ أمة كان فيها الحسين (عليه السلام)، وكانت فيها عاشوراء، هي أقدر على التفاعل مع تلك المعاني والمضامين، التي أبرزتها عاشوراء؛ لأنّها رأتها حيّة تتحرك في ساحة كربلاء، ورأتها تنطق بلغة، لا محل فيها للكذب أو المزاح.

وبناء على ما تقدم، فإن الدين الهادف إلى التغيير، يستطيع أن يقوم بالمهمة، كلما تجلت معانيه أكثر، وظهرت بشكل أصدق. ومن هنا كانت عاشوراء محطة أساسية ورئيسة في عملية التغيير، ليس في حماية الدين وحفظه وممارسة الإصلاح فقط، بل أيضاً في إبراز معانيه وقوة تجلياته وصدق تعابيره وتأثير مضامينه. لذا يكون الاحتفال بعاشوراء مناسبة لإعادة إظهار الدين، وإبراز معانيه نقياً صافياً صادقاً جلياً، كما ظهر في ساحة كربلاء وفصول الملحمة. فتعيد عاشوراء استحضار كلّ تلك المعاني الصادقة والقيم السامية؛ للتماهي معها والتفاعل عبرها والتأثر بدلالاتها؛ فتقدم فهماً للإسلام كما نطقت به دماء الحسين (عليه السلام)، وللتربي على معانيه كما أرادت ثورته، ولتلقي تعاليمه كما تجلّت في مدرسته.

فينبغي أن تكون عاشوراء ثروة، ليس للمسلمين فقط، بل لجميع بني الإنسان، فيعملون على قراءتها وفهم معانيها ورسالتها، بهدف التغيير والإصلاح ومقارعة الفساد.

---

[2]. الخميني، روح الله الموسوي: **نهضة عاشوراء**. ط1، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، قم،1995.ص66.

معركة إنقاذ الإسلام[3]:

"المشروعية" كانت أهم أزمة واجهت أكثر من سلطة سياسية بعد رسول اللَّه (صلى الله عليه وآله)؛ لأن المجتمع القائم آنذاك كان مجتمعاً دينياً، فالمعايير والمفاهيم المؤثرة فيه كانت المعايير والمفاهيم الدينية، كما لم يكن هناك فصل بين الإمامة السياسية والإمامة الدينية. لذا كان ضرورياً لأية سلطة سياسية– تريد أن تكسب مشروعيتها السياسية– أن تعمل أولاً على إيجاد المبرر الديني لسلطتها؛ كي تضمن لنفسها القوة والبقاء والمشروعية.

فعملت السلطة الأموية جاهدة على تقديم رؤيتها في المشروعية الدينية السياسية، التي تبرر من خلالها استيلاءها على الخلافة وإمامة الدين والأمة، وجميع الأعمال التي قامت بها.

وأدركت هذه السلطة أن الإمامة السياسية تستقي مشروعيتها من الدين، وليس العكس. بالتالي، فإنها ما لم تلبس سلطانها لباساً دينياً، فلن تستطيع أن تقدم التبرير الكافي لبقائها واستمرارها، لكنها أدركت أيضاً أن النص الديني لا يخدم مصالحها، بل هو على العكس من ذلك، حيث تسهم مفاهيمه وتعاليمه وأحكامه في مواجهتها، ورفض ظلمها، والعمل على تهديم أسسها، وكنسها إلى مزابل التاريخ. فالدين كما جاء به محمد بن عبد اللَّه (صلى الله عليه وآله) لا يخدم أهدافها، ولا يبرر وجودها، ولا الكثير من أعمالها.

من جهة أخرى، يفصح هذا الدين عن مشروعية الخط المعارض لها، و يؤكّد مشروعيته الدينية والسياسية، ويدعم قوته المعنوية والاجتماعية، وإن لم يملك عناصر القوة المادية والعسكرية في أرض المعركة والواقع.

ومن هنا، حرصت تلك السلطة على صناعة دين جديد، في مفاهيمه وأحكامه وعقائده؛ فاخترعت ديناً يبارك جريمة السلطان باسم اللَّه، ويرى أن فعل السلطان هو فعل اللَّه على الأرض.

وبالنتيجة، يستطيع الأمويون الحكم بقتل حفيد رسول اللَّه (صلى الله عليه وآله)، فاللَّه تعالى هو من فعل ذلك ولا يد لهم فيما حصل، بطريقة تنفي اختيار الإنسان وتراه مسيّراً مجبراً، لا يقدر فعلاً ولا يستطيع تغييراً. لقد أبدعت السلطة ديناً، يرى أن من أعظم القرب إلى اللَّه (تعالى) طاعة السلطان، حتى لو كان ظالماً فاسداً.

واستطاعوا إيصال العديد من الناس إلى تلك النتيجة، حيث أدرك الأمويون أن الإسلام مصدره، بعد النبي(صلى الله عليه وآله)' أهل بيته، وأنهم ينطقون باسمه وينطق بهم، وأن هذا الإسلام النقي لا يهدم مشروعيتهم الدينية والسياسية فقط، بل يعطي المشروعية لأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله).

ومن هنا عملوا على محاربة مدرسة الإمامة من خلال الدين نفسه، كما عملوا على تقوية سلطانهم من خلال ذلك الدين؛ ولذا لامس تحريفهم العديد من العلوم الإسلامية والمعارف التي تنضوي في المنظومة المعرفية

---

[3] اليزدي، مصباح: **بارقة من سماء كربلاء**. ط1، ترجمة: محمد عبد المنعم الخاقاني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت،2004.ص31-32.

للإسلام من تفسير القرآن والأحاديث التي تُنسب زوراً إلى رسول اللَّه (صلى الله عليه وآله)، فضلاً عن علم الكلام وغيره. وقد وجدوا لتلك المهمة العديد من الرواة، المستعدين لبيع دينهم وضمائرهم، بحفنة من الدراهم والدنانير، من أجل أن يقدموا تلك الخدمات (المعرفية الدينية) للسلطان.

الشهادة والمشروعية:

أدرك الحسين خطورة الموقف، فلم تعد القضية قضية سلطان قد يطويه توالي الزمان، بل أصبحت القضية قضية دين، إذا حُرِّف، قُضي عليه واندثر؛ فكل الأمم التالية سوف تتلقى ديناً محرفاً مشوَّهاً على أنه دين رسول اللَّه (صلى الله عليه وآله)، وأنه الدين الذي جاء من عند اللَّه (تعالى)، في حين أنه دين الأمويين، الذي عملت فيه السلطة الأموية تحريفاً وتبديلاً بما يخدم مصالحهم ودوام سلطانهم. وهذا الدين المحرَّف لن يثمر في واقع المسلمين العملي والسياسي والاجتماعي والجهادي، إلا انحرافاً وتشويهاً وابتعاداً عن دين اللَّه وسنة رسوله؛ فقد يقتل المسلم مسلماً مثله باسم الدين ونصرته. وهذا القتل لا نجد له أساساً دينياً– بل يتبرأ منه الإسلام– إلا تلك الفتوى المأجورة التي قبض الأجير فيها دنيَّة من حطام الدنيا، ولكن ما زال يدفع ثمنها ألف مظلوم ومظلوم ذبحاً وقتلاً، ودماً عبيطاً، سوف يبقى يغلي ويلح على ظالمه، إلى أن يجد ضالته يوم العدل الأكبر.

لقد أصبح الحسين أمام موقفين: إما أن يبايع يزيداً، فيكون قد منح المشروعية لذلك الدين المختلق والمحرَّف؛ وإما أن يقدم نفسه وأهل بيته وأصحابه على مذبح الشهادة، فيقضي على كل تلك المشروعية الدينية والسياسية للسلطة الأموية ودينها اللقيط؛ لأن اسم الحسين ومحبته ومكانته وكرامته وقدسيته، كان محفوراً في وجدان الأمة ووعيها، ليس لأنه حفيد الرسول اللَّه (صلى الله عليه وآله) وتربى في حجره فحسب، أو لأنه ابن فاطمة وعلي (عليهما السلام) أيضاً؛ بل لأن الرسول قد أعطاه ألف شهادة وشهادة لا تفصح عن عاطفة جدٍّ لحفيده، بل تفصح عن المكانة الدينية للحسين (عليه السلام)، وأنه حافظ الدين، ومن سيتولى الإمامة في زمان عضوض، بعد ردح من رحيل الرسول[4]. فارتسمت معادلة مفادها: إن سلطة تقدم على قتل الحسين (عليه السلام) هي سلطة عدوة للدين ولسيد المرسلين، ولا يمكن أن يكون لها أي نصيب من المشروعية، وإن جهد الساعون[5].

وهنا ميّزت هذه الشهادة بين إسلامين: الإسلام النبوي كما جاء به محمد (صلى الله عليه وآله)، والإسلام الأموي كما أرادته مصالح بني أمية. وعندها تتعرى كل تلك المحاولات المشبوهة لصياغة دين السلطان وتقديمه على دين

---

[4] الصدر، محمد (الشهيد)**: شذرات من فلسفة تاريخ الحسين (ع)**. ط2، دار الأضواء، بيروت، 2002م.ص34-42.

[5] شقير، محمد**: الإصلاح الديني (هل كان هدفاً للحسين؟)**. ط1، دار الهادي، بيروت،2001م.ص40-43.

اللّه تعالى. لقد فضح الحسين (عليه السلام) بدمه، كل تلك الأفواه الرخيصة التي باعت ذممها في سوق الفتاوى المأجورة، و خاض معركة إنقاذ الإسلام الأصيل؛ الذي لا يفرّق بين غني وفقير[6].

إن العبرة الأساس التي نأخذها من ثورة الحسين (عليه السلام)، هي أن هذه المعركة التي بدأها الحسين يجب أن تستمر، أي معركة إنقاذ الإسلام من كل تحريف وتشويه؛ حتى لا يُقتل المسلمون باسم الدين، ولا يعتدى على الحرمات باسم شريعة سيد المرسلين، ولا تُنتهك المقدسات باسم القداسة. لذلك يجدر بجميع علماء المسلمين الواعين لحقيقة ثورة الحسين (عليه السلام)، أن يعملوا على تنقية التراث الإسلامي من تلك الفتاوى، التي ذبحت الحسين، وما زالت تفعل فعلها عصبية صماء، وفتنة عمياء، وذبحاً وتقتيلاً، وهتكاً للمقدسات والحرمات.

هرم: السلطة و الثورة والشهادة:

يتصل مفهوم السلطة في الرؤية الإسلامية بمنظومة الوظائف التي تقوم بها: الإصلاح، التنمية والعدل... و كلّها مقيّدة بعدم إساءة توظيف السلطة. أما إذا حصل وتسرب الخلل، فهو مؤشّر على أن ذلك الخلل يكمن في بنية السلطة نفسها وفي شروطها الذاتية. عندئذ، يحتاج الأمر إلى تغيير جذري، وهنا تأتي جدلية المشروعية والثورة.

فمبرر وجود السلطة –إذاً–، هو الوظائف التي تخدم مصالح مجتمعها، ونموه ورقيّه. فإذا انقلبت السلطة على وظائفها، فهي تنقلب على مبرر وجودها، بل قد تصبح عالة على مجتمعها، لتستبدل منظومة الوظائف التي تخدم مصالح اجتماعها السياسي، بمنظومة أخرى من الوظائف التي تتماهى ومصالح العائلة أو الحاشية أو الفئة الحاكمة.

وهنا يأتي التحريف، حيث تَصطنع (ثقافة) السلطة أكثر من توليفة بين المنظومتين؛ أي منظومة الوظائف التي تعني الاجتماع السياسي، ومنظومة الوظائف التي تعني السلطة الحاكمة؛ لتكون الثانية باباً إلى الأولى، بمعنى آخر: يتحول الأصل إلى فرع ، والفرع إلى أصل. فتصطنع ثقافة تكون السلطة فيها هي الهدف، بدل أن تكون وسيلة. ويصبح استمرارها غاية، بدل أن يكون أداة. بالتالي، ينشأ وعي محرّف للسلطة، يرتكز على نوع من العبودية السياسية للسلطة نفسها، ويقوم على ثقافتي الخضوع والخنوع، التخدير والتبرير، ويستبعد ثقافة الصلاح والإصلاح.

هنا تكمن ثورة الحسين (عليه السلام)، لتقضي على أية عبودية سياسية، تجعل السلطة صنماً سياسياً، يضاهي أصنام الجاهلية الجهلاء؛ لأن الاجتماع السياسي في الرؤية الإسلامية، هو اجتماع وظائف وواجبات وحقوق،

---

[6]. شقير، محمد: **مطارحات في الإصلاح والتغيير**. ط1، دار الهادي، بيروت، 2004م.ص49-53.

وليس اجتماع عبودية. فإذا خرجت السلطة–أية سلطة– عن وظائفها، وأخلّت بواجباتها، وأضرت بحقوق الناس، فعندها تُخيّر بين أمرين: الكلمة أو الثورة، أي إن التقويم لا بد منه، يبقى اختيار الوسيلة.
فكانت الثورة دعوة إلى تغيير السلطة، التي تفتقر إلى مبرر استمرارها، حيث لا يمكن القبول بمنطق الجمود، ولا يمكن الركون إلى ثقافة الركود، ولا إلى فقه القعود.
فلم يكن الحسين (عليه السلام) يطمح إلى سلطة بما هي سلطة، ولم تكن تغريه الإمارة. وإن من يقرأ بيانات الثورة، يعرف أنه يرمي بنظره إلى أبعد من ذلك. لقد خرج لطلب الإصلاح (في جميع ميادينه) يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (بما فيه المعروف السياسي والمنكر السياسي)؛ لقد أضحت السلطة عائقاً أمام ذلك كله، لذا كان لا بد من تغيير السلطة نفسها، وصولاً إلى ما هو أبعد، إلى الهدف والغاية.

لقد ادعت الكوفة أنها وفّرت للإمام وسيلة التغيير، فكان لا بدّ من الخروج إليها وإقامة الحجة عليها، وإن كان (عليه السلام) يعلم أن فعل الثورة سوف ينتهي بالشهادة، بل الأصح أن نقول إنه سوف يبدأ بالشهادة.
لقد استشْرت ثقافة الركون، وساد فقه السكون، وحلّت ثقافة التبرير، وعمّ فقه التخدير، ولم يعد قادراً على إنقاذ إرادة الأمة، وإحياء وعيها، وإصلاح ثقافتها، إلا حدث خاص، كحدث الشهادة. فلم يعد الإصلاح ممكناً، ولا التغيير متاحاً، إلا إذا هزّت مفاصل الأمة شهادة كشهادة الحسين (عليه السلام). هنا لم تعد الشهادة فعل موت، بل فعل صلاح وإصلاح، عندما تضحي الشهادة مدخلاً وحيداً وفريداً لهدم السلطة، التي تمارس الفساد والإفساد. أصبحت هذه الشهادة مرادفاً لفعل الثورة وباباً إليها[7].
هنا تتضح حقيقة العلاقة بين الشهادة والثورة، كما يتضح موقع السلطة في التوليفة بينهما؛ فالثورة قد تكون باعثاً إلى الشهادة، وقد يحصل أن تكون الشهادة –كشهادة الحسين– سبباً للثورة. وإن وعي الثورة ينطلق من أن مبرر السلطة يكمن في واجباتها ووظائفها. فإن أخلّت بها، فإن فقه السلطة في رؤية الحسين (عليه السلام) يقود إلى كنس تلك السلطة بفعل الثورة، وإن تطلب الأمر حدث الشهادة.

الثورة وثقافة الحياة:

يقول الإمام الحسين (عليه السلام) في بعض خطبه: «**إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً**»[8] أي حياة لا يمكن تحملها، وهو يعود بنا إلى قول الإمام علي (عليه السلام) في صفّين: " **الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين** "[9].

---

[7] الصدر، محمد (الشهيد): **أضواء على ثورة الحسين (ع)**. ط1، دار الأضواء، بيروت، 1996 م .ص51-52.
[8] المجلسي، محمد باقر: **بحار الأنوار**. ط4، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1404هـ. ج44،ص192.
[9] المعتزلي، ابن أبي الحديد: **شرح نهج البلاغة**. (لا.ط)، مكتبة آية الله المرعشي، قم، 1404هـ.. ج3، ص244.

إن الرؤية الإسلامية للحياة الدنيوية المادية (أي حياة الأبدان) تختلف عما يراه الآخرون، إذ إن هذه الحياة ليست هدفاً بذاتها، وإنّما هي وسيلة لحياة أسمى وأعلى. وهي حياة الإنسان في روحه وفي قلبه، فبمقدار ما يقوم الإنسان بتزكية نفسه بالفضائل وتحليتها بالمكارم قربة إلى اللّه تعالى، بمقدار ما تزدهر هذه النفس بالحياة. والعكس صحيح، فبمقدار ما تسقط في الرذائل وتنغمس فيها، بمقدار ما تهوي في الموت.وإذا كانت حياة الأبدان أمراً تكوينياً، يكتسبه الإنسان بالخلقة، فإن حياة الأنفس ليست كذلك، فلا ينالها الإنسان إلا بفعله وجهده وتزكية نفسه، وبمقدار ما يقترب من الفضائل، ويبتعد عن الرذائل.

ولذا كانت دعوة الأنبياء دعوة إلى الحياة الحقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ **سورة الأنفال:آية 24**؛ أي إن دعوة الرسول هي دعوة للحياة الحقيقية؛ حياة الأنفس والقلوب التي تحصل من أعمال الخير والطاعة والإيمان باللّه تعالى، وما حياة الأبدان إلا وسيلة لهذه الحياة، توصل إليها وتساعد عليها.

بل إن هذه الحياة التي يكتسبها الإنسان بجده وعمله في الدنيا، هي التي تمنحه الحياة بعد انتهاء حياة الأبدان، كما أشارت الآية الشريفة: ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ **آل عمران، الآية169**. في حين أن الذين كانوا أحياء الأبدان، وأموات الأنفس والقلوب في الدنيا؛ هم الذين يخيم عليهم الموت بعد تركهم للدنيا: ﴿**أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾ **النحل،الآية21**. ويبقون في موتهم وسباتهم، كما كانوا في الدنيا إلى يوم القيامة.

إن الحياة الحقيقية للأمة، لا تكمن بمقدار ما تأكل وتشرب . هذه الأمور وإن كانت أموراً ضرورية، لا بد منها للحياة المادية وحياة الأبدان، لكن فلسفة حياة الإنسان تكمن في التحلّي بالفضائل والمكارم والابتعاد عن الرذائل والمآثم، التمسك بالعدل والابتعاد عن الظلم، العمل بالإصلاح والصدّ عن الإفساد، إشاعة المعروف، واجتثاث المنكر، مجابهة الباطل والجهر بالحق... كل تلك المفاهيم والقيم الأخلاقية، والمعاني الروحية التي جاءت بها الأديان، وتلك المبادئ التي ترفض الصنمية، سواءٌ كانت أصناماً من حجر أو أصناماً سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية...

إن ثقافة الحياة التي تختزنها ثورة الحسين (عليه السلام) تنشد الحياة التي يتحرر فيها الإنسان من أية عبودية، سوى عبوديته للّه تعالى. سواءٌ كانت هذه العبودية للذات أو أية عبودية أخرى مصطنعة، وبأسماء باطلة، وعناوين زائفة، من سياسية أو اجتماعية أو سلطوية، التي تعمل على إغراق الإنسان في الموت، عندما تريد منه أن يعيش عبداً لنزواته وشهواته وغرائزه؛ لتعمل على استغلاله من أجل منافع رخيصة، ومصالح ضيقة، ومكاسب فئوية.

إن الحياة في ظل القهر والظلم والفساد والمنكر والرذيلة هي موت حقيقي، وإن الموت في ظل العدل والحق والكرامة والحرية والعزّة هي حياة حقيقية[10]، حياة في الدنيا وحياة فيما بعدها؛ لأن النفس التي تحيى بقيم الوفاء والحرية والتضحية والاخلاص والطاعة للّه تعالى- هي نفس حية كريمة، وإن عاد منها البدن إلى موطنه الترابي. والنفسُ التي أصابها الذّل، وشلّ منها العقل، وسقطت في الهوى، وبعدت عن الحقّ، وعمي منها القلب- هي نفس ميّتة، وإن كان لها بدن يتمتع كما تتمتع الأنعام.

الفرق بين ثقافة الحياة التي تدعو إليها الرسالات السماوية، ودعاوى الثقافات الزائفة؛ أن الأولى تدعو إلى حياة القلوب وحياة الأبدان، في حين تدعو الثانية إلى حياة للأبدان وموت للقلوب، الأولى ترى في حياة البدن وسيلة، وفي حياة القلب غاية، وترى الثانية أن حياة البدن هي الهدف والغاية؛ ترى الأولى أن حياة القلب هي الأصل وحياة البدن هي الفرع، في حين ترى الثانية أن حياة البدن هي الأصل الأصيل، وأنه لا فرع لها ولا بديل. الأولى تنشد الحياتين معاً وترى في حياة البدن قبساً من حياة الروح، بينما تنشد الثانية الحياة الأدنى والأرخص. ترى الأولى أن الحياة درجات والموت دركات، وأن هدف الدنيا طلب الحياة الأسمى. بينما اختلط على الثانية مفهوم الموت ومفهوم الحياة؛ لترى أن هدف الدنيا تحصيل الشهوات وتحقيق النزوات.

إنّ الحياة التي نادى بها الحسين (عليه السلام) هي حياة الدين والقيم. وإن الأمم تحيى عندما يحيى العدل ويفلح الحق ويموت الظلم ويخيب الباطل؛ وعليه إذا قُلبت المعادلة يعني ذلك أن الحياة الحقيقية للأمة قد أصبحت في خطر؛ لأن الأمة لا تستطيع أن تحيى حياة عزيزة حرّة كريمة، في ظل سلطان جائر ظالم مفسد. ومن هنا يصبح بقاء هكذا سلطان دعوة إلى الموت، وإغراقاً في الذّل، ويمسي رحيله دعوة إلى الحياة وإشراقاً للعزّ.

فسلطان ذلك الوقت كان دعوة إلى موت الدين والقيم والعدل، وإحياء الظلم والفساد والجهل. و لم تكن لنفس أبية عزيزة كنفس الحسين (عليه السلام) أن تقبل حياة الموت وموت الحياة، ولم تكن لنفس حيّة كنفسه، أن تقبل موتاً لحياة الدين والأمة، بل لم تكن لنفسه أن تبخل بحياة البدن وحياة أصحابه وأهل بيته، إذا كانت ثمناً لحياة القيم والدين والعدل والأمة. لذا أصبحت شهادته ثمناً للحياة الحقّة، أي ثمناً لموت الموت (السلطان الظالم) وحياة الحياة(حياة الدين والقيم والأمم)؛ ولذلك كان خروجه استمراراً لخروج جدّه رسول اللّه (صلى الله عليه وآله) وحفاظاً لدينه.

لقد كانت رسالة الحسين كثورته، دعوةً إلى الحياة، أحيت الدين وأحيت القيم وأحيت الأمم؛ رسالة تحتضن رؤية خاصة للموت والحياة، يمتزج فيها كل منهما بالآخر، فقد يكون موتٌ ما، حياةً، ما بعدها حياة. وقد تكون حياة ما، موتاً أشدّ من الهلاك. إنها جدلية الحياة والموت، جدلية يدركها من وعى سراً من ثورة الحسين (عليه السلام).

---

[10] الصفّار، حسن: **الحسين ومسؤولية الثورة**. (لا.ط)، دار الحوراء، بيروت، (لا.ت).ص52.

المصادر والمراجع:

1. مصباح اليزدي: بارقة من سماء كربلاء. ط1، ترجمة: محمد عبد المنعم الخاقاني، دار التعارف للمطبوعات، بيروت،2004.
2. محمد شقير: الإصلاح الديني (هل كان هدفاً للحسين؟). ط1، دار الهادي، بيروت،2001م.
3. محمد شقير: مطارحات في الإصلاح والنغيير. ط1، دار الهادي، بيروت، 2004م.
4. محمد الصدر(الشهيد): شذرات من فلسفة تاريخ الحسين (ع). ط2، دار الأضواء، بيروت، 2002م.
5. محمد الصدر(الشهيد): أضواء على ثورة الحسين (ع). ط1، دار الأضواء، بيروت، 1996 م .
6. حسن الصفّار: الحسين ومسؤولية الثورة. (لا.ط)، دار الحوراء، بيروت، (لا.ت).
7. روح الله الموسوي الخميني: نهضة عاشوراء. ط1، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، قم،1995.

7. مرتضى المطهري: الملحمة الحسينية. تعريب السيد محمد صادق الحسيني، ط2، الدار الإسلامية، بيروت، 1992م.

8. المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار. ط4، مؤسسة الوفاء، بيروت، 1404هـ.
9.المعتزلي، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة. (لا.ط)، مكتبة آية الله المرعشي، قم، 1404هـ.